

# الحياة الأدبية في دمشق

للأستاذ علي الطنطاوي

في وجود هذه الحياة ، فلا أستطيع أن أجزم بوجودها لأني لا أرى علامة من علامات الحياة في أدباء دمشق وأدبها ولا أستطيع أن أنفيها ، لأن في دمشق أدباء كباراً معروفين ولأن دمشق - كما يعلم الناس جميعاً - عاصمة من عواصم البيان العربي . . . .

ولقد رجعت أعرض تاريخ الأدب في دمشق منذ عهد الاحتلال إلى اليوم ، وأنظر الآثار الأدبية الخالصة التي أخرجها أدباء دمشق في هذه الخمسة عشر عاماً ، فلا أجد إذا استثنيت مجلتي الرابطة الأدبية والميزان ، ورواية سيد قريش لمروان الأرفاوط ، وكتابي التنبي والمحاظ لشفيق جيري ، ورسائل أئمة الأدب تحليل مردم بك ، إذا استثنيت هذه الكتب ، وكتابين آخرين أو ثلاثة قد أكون نسيتهما ، لا أجد أترا أدبياً له قيمة . وهناك كتب محمد بك كرد علي : خطط الشام ، والاسلام والحضارة ، وغيرها ، ولكنها ليست من الكتب الأدبية الخالصة ، وإنما هي كتب تاريخ لا تدخل في موضوع مقال

على أن هذه الكتب التي استثنيتها ليست في درجة واحدة من حيث قيمتها الأدبية ، فبيننا نمد (سيد قريش) عملاً فنياً كبيراً على ما فيها من ضعف العقدة الروائية ، وتشابه المناظر ، وتكرار الأوصاف ، وغلبة النصرانية على أجل صفحاتها ، نمد رسائل (أئمة الأدب) تحليل مردم بك ، كتباً مدرسية ، موضوعة لطلاب البكالوريا لا تبلغ أن تمد في الدراسات القوية التي تستند إلى طريقتي في البحث معروفة ، وتكشف عن نواح مجهولة من حياة الأديب الذي تبحث عنه ومن أدبه ؛ ثم إن هذه الكتب نفسها إذا قيست بمدينة كدمشق ، في مدة طويلة كهذه المدة ، لا تمدو أن تكون أترا ضئيلاً لا يدل على حياة . . . . وهذا الأثر على ما فيه من ضعف ينحصر في فنين من فنون الأدب هما : القصة التاريخية ، والدراسة التحليلية ؛ أما سائر فنون الأدب كالتقصة الخيالية ، والأقصوصة القصيرة ، والصورة الوصفية ، والمذكرات الأدبية ، والتأملات الفلسفية والشعرية ، والدواوين القيمة ، والخطب البليغة ، وغيرها من فنون الأدب ، فلا نكاد نجد لأدباء دمشق فيها أترا يذكر

من أجل ذلك لم أقل إن في دمشق حياة أدبية ، لأن ما نحن فيه ليس بالحياة ولا يشبه الحياة ، ولم أنف هذه الحياة لأن في

لا شك أن (الرسالة) بسموها عن الفكرة الإقليمية الضيقة ، وفتحها أبوابها لأبناء العربية جميعاً ، ودعوتها إلى الاجتماع على التوحيد في الدين ، والفضيلة في الأخلاق ، والوحدة في السياسة ، والصحة في اللغة ، والجمال في الأسلوب ، والتجديد في الأدب . . سيكون لها أثر كبير في تاريخ الصحافة العربية بما سنت من هذه السنة الحسنة التي لم تعرفها من قبل كبريات مجلات مصر لإقليلا ، وبما بلغت من الجمال والاتقان ، في الشكل والموضوع ؛ وسيكون لها أثر كبير في تاريخ الأدب العربي ، بما وضعت للأدب من منهج مستقيم ، وما أحييت من الأسلوب العربي ، وما قبست من روائع الآداب الأجنبية ؛ وسيكون لها أثر كبير في التاريخ العربي العام ، بما دعت إليه من الوحدة العربية ، وما نشرت من أمجاد السلف ، وما وضعت في نفوس الناشئة من قرائها ، من العمل للجامعة العربية الواسعة ، لا الإقليمية الضيقة . . .

ولا شك أن «الرسالة» اليوم للأقطار العربية كلها ، لا لمصر وحدها ؛ فكما تفتح «الرسالة» أبوابها للمقالات الوصفية والقصصية ، وللقصائد والبحوث التي يبعث بها إليها أدباء الشام والعراق وغيرها ، فلتفتح أبوابها للفصول النقدية ، والبحوث المستفيضة عن الحركة الأدبية في هذه البلاد ، ولو كانت قاسية شديدة على النفوس ، ولو كشفت عن حقائق يجب بعض الناس ألا ينكشف عنها الستار ؛ وليس من مصلحة الأدب في شيء أن يظل أدباء مصر والعراق جاهلين مدى الحركة الأدبية في الشام - مغترين بها - وليس من المصلحة أن يبقى أدباء الشام ومصر جاهلين مدى الحركة الأدبية في العراق ، بل يجب أن يصف أدباء كل قطر من الأقطار الحياة الأدبية في قطره ، ومبلغ قوتها أو ضعفها ، وسبب تقدمها أو علة قصورها ، وأن يجلوا أدواءها وأمراضها ، لتتعاون جميعاً على علاجها ومداواتها ، وتقويتها وشد أزرها ؛ والحياة الأدبية في الشام أحوج شيء إلى المداواة والعلاج ، إذا كان في الشام حياة أدبية ، لها وجود ، ولها آثار يستطيع الناقد أن يصفها ويتحدث عنها ؛ وأنا أشك

أحدًا ممن له صلة بالدوق الأدبي يرضى عنها ، وما أظن أن أصحاب الجرائد والقاعين عليها يرضون عنها ، أو يجدون فيها وفاء مما يؤملون . وإذا ألف الأديب كتاباً أو قصة لم يجد الناشر ، وإذا أفنق عليها من ماله لم يشتريها أحد ، لأن دمشق بلد تقرأ كثيراً ولكنها لا تشتري ؛ وهذه مجلة (الرسالة) ، لا نجد في دمشق أديباً أو متادباً إلا اعترف لك بأنهم خير مجلة أخرجت للناس ، وأن العالم العربي لم يعرف مجلة مثلها منذ أنشئت أول مطبعة في مصر ، ولا نجد أديباً أو متادباً إلا وهو ينتظر يوم الثلاثاء ليقرأ الرسالة ، وبعد ذلك كله يباع من أعداد الرسالة في دمشق كلها أقل من خمسمائة عدد ...

هذه حجة الأدباء في تقاعسهم عن النشر ، وهي كما ترى حجة مقبولة ، ولكنك إذا سألت القراء لم لا يشترون ، احتجاجوا بأن الأدباء لا ينشرون ، وإن تقاعسهم وكسلهم علم القراء الزهد في الآثار القيمة والانصراف عن شرائها . ، وأنه لا بد من أن يضحي الأدباء بقسط من أموالهم وشهرتهم حتى يستفيدوا القراء الذين فقدوهم . على أن الذنب في رأي ذنب المدارس والمدرسين ، لا ذنب الأدباء ولا ذنب القراء ، فليس في الشام اليوم من دروس الأدب إلا هذا القدر القليل الذي يتعلمه الطالب في مقرر البكالوريا . وهذا القدر لا يحق حقاً ، ولا يبطل باطلاً ، ولا يصنع شيئاً أكثر من تضييع الطلاب في الأدب ، وتسويده في أعينهم ، ذلك لأن شعب الأدب في صفوف البكالوريا تسير في طريق عوجاء أبعد ما تكون عن بث الملكة الأدبية في نفس الطالب . وكيف تكون الملكة الأدبية طائفة من أخبار الشاعر وأسماره يستظهرها الطالب من غير أن يفهمها غالباً ، ويحتفظ بها في دماغه إلى يوم الامتحان ، فإذا أداه ونال الشهادة أمهلها ، أو دخله الغرور فظن أن معنى (بكالوريوس في الآداب) كاتب أو أديب ، فزهد في المطالعة ، وانصرف عنها أو طالع ما يقع تحت يده من الكتب والمجلات حتى ابتلى بسوء الهضم ، وأصيب بالنخمة العقلية ... فترك القراءة وذهب إلى الندى (القهوة) يقطع عمره في الزد والشرخ ثم يعمد إلى الكتابة في موضوع علمي أو فلسفي دونت فيه عشرات المجلدات من غير أن يقرأ منها شيئاً ...

ثم إن طلاب شعب الأدب في صفوف البكالوريا لا يستطيعون

دمشق أدباء ينتجون ، أو يستطيعون أن ينتجوا شيئاً ، وإعما أقول إن أدباء دمشق في منزلة بين الموت الكامل ، والحياة الصحيحة ، هي السبات العميق ، والنوم الطويل الذي يشبه نوم الضفادع طول الشتاء ، إذ تدخل في ثقب من الثقوب ، فتأبث الفصائل كله كأنها قطع الحجارة ، لا تأكل ولا تشرب ، ولا تنق ولا تتحرك ...

وإلا فما يصنع كتاب دمشق وشعراؤها؟ وأين هي منتجاتهم الأدبية؟ وهل يكفي الشاعر أن يقول كل خمسة أعوام قصيدة واحدة تضطره إليها المناسبات اضطراراً ، ثم لا يكون فيها أثر من نفسه ، ولا تصف شيئاً من عواطفه؟ وهل يكفي الكاتب أن ينشر كل عامين مقالة تطلب منه ، أو مقدمة كتاب يسأل كتابتها؟ بل هل يستطيع أن يملك لسانه الشاعر فلا يقول شيئاً وهو يرى كل يوم ما ينطق الصخر بالشعر من مصائب الأمة ونكباتها ، بل وهوومه هو ومصائبه وما يشاهده في حياته في بيته ، وحياته في عمله؟ .. أليس في حياته سرور وألم ، وأمل وقنوط ، وضحك وبكاء؟ أليضحك الشاعر فلا يمتني ، ويبكي فلا ينوح ، وتهز قلبه الحادثات فلا يقول شيئاً؟ أنا لا أستطيع أن أتصور كاتباً أو شاعراً ، لا يكتب ولا ينظم ، وكل ما حوله بهيج نفسه ، ويثير عاطفته ...

إن أدباءنا يحتاجون بأنهم لا يجدون مكاناً ينشرون فيه ، وإذا لم يجد الأديب سبيلاً إلى النشر ضعفت همته ، وانكسر نشاطه ، ولم يجد حافزاً إلى العمل ، لأن فقد عنصر النشر من أكبر الأسباب في هذا الركود الأدبي ... وهذا صحيح لا غبار عليه وليس في دمشق مجلات أدبية ، إلا مجلة صغيرة اسمها (الطليعة) يصدرها نفر من الشباب المثقفين الذين يحملون الشهادات المالية من أكبر معاهد أوروبا ، ولكن لها منحي خاصاً لا يرضى عنه الناس كلهم ، وهي تسمى بخطى مضطربة . وربما اضطرت أصحابها إلى إغلاقها كما اضطرت من قبل أصحاب (الثقافة) إلى إغلاقها ، برغم أن أصحابها من صفوة أدبائنا ومفكرينا ، كخليل مردم بك وجميل صليبا وكاظم الداغستاني؛ ثم إن الجرائد اليومية لا تمني بالأدب عناية كبيرة ، ولا تخصص له صفحات دائمة تنفق عليها بسخاء ، وإن هذه الصفحات الأدبية التي تزين بها سنديور بعض جرائدنا اليومية صفحات فارغة ، لا أظن أن

# أزمة أوروبا الدينية

## في العصر الحاضر

بقلم محمد جلال

بجمل الينا - كما يرى الكثيرون - أن التصوف هو أحد حالات النفس وأقدرها على محاسبة الضمير وكشف حقيقة قال ابن خلدون : « وأصله - أي التصوف - ... طريقة إلهية والهداية<sup>(١)</sup> » وقال أيضاً : « ويتم (بالمجاهدة) وجود النفس لها من ذاتها وهو عين الإدراك<sup>(٢)</sup> » وقال الأستاذ لاند :  
« Le mysticisme est : ... croyance à la possibilité d'une union intime et directe de l'esprit humain en principe fondamental de l'être<sup>(٣)</sup> »

أي أن التصوف هو اعتقاد في إمكان حصول اتحاد تام مابين الروح وحقيقة الانسان . وقال الفيلسوف برجرسون :  
« Le grand mystique serait une individualité qui franchirait les limites assignées à l'espèce par sa matérialité, qui continuerait et prolongerait ainsi l'action divine<sup>(٤)</sup> »

ومنه أن الصوفي الحقيقي هو الذي يتخطى حجاب الحس الذي وضعته الطبيعة البشرية ليواصل بذلك العمل الإلهي

يتضح من ذلك أن التصوف يحقق شرطى الدين وهما الاعتناء والعمل . فتلاحظ إذاً أن معظم المتصوفة قد نشأوا في بيئة دينية إلا القليل منهم من ظل يعمل بعيداً عنه في الظاهر . ولما كان للروح العملية اتجاه يختلف عن الاتجاه الديني في كثير من أغراضه وميوله ، مال العلماء إلى التخلي عن الدين ورميه بالنقص لهذا سنقتصر بحثنا الآن على حقيقة الإيمان مع اتصاله بالعلم والفلسفة والتاريخ

أن يستعينوا بالثقافة العامة التي يتلقونها في المدرسة ، ولا يعرفون كيف يستفيدون من علم الفريزة (الفلسفة) أو علم النفس أو التاريخ في بحوثهم الأدبية ولا يعرفون شيئاً من مناهج النقد ، وقواعد التحليل الأدبي ، لأن الطلاب كسالى أو بلاء ، فالطلاب يدرسون الأدب الفرنسي فيسبغونه ، ويدرسون الرياضة فيفهمونها ، ويدرسون أشياء كثيرة غير هذه يضيقون ببعضها ويتبرمون به ، ويقبلون على بعضها ويحبونها ، ويجدون لذلك كله أترأ في نفوسهم ، فإذا جاء الأدب العربي وجدت أكثر الطلاب لم يلدوه ولم يبق في نفوسهم أترأ

وسبب ذلك أن أكثر المدرسين عاجزون عن أداء هذه المهمة التي انتدبوا أنفسهم لها ، أو انتدبهم لها من يدهم مقاليد الأمور ، لشهرتهم الأدبية أو لشهادتهم العالية ، أو لشيء غير ذلك له صلة ضعيفة ، أو لاسلة له بالأدب قط . وأكثر المدرسين اليوم بين رجلين : رجل نقف الأدب العربي القديم ثقافة حسنة ، وضرب بالسهم الوافر في علوم العربية نحوها وصرفها ، وبلاغتها وعروضها ، ونقدها وروايتها ، وحفظ أيام العرب وأمثالهم واستطاع أن يفهمها حتى فهمها ، وينقدها نقد بصير بها ، ولكنه عجز عن أن يدرسها ويدرس رجالها دراسة تحليلية صحيحة لجهله الآداب الأجنبية ، وجهله قواعد النقد الحديث

ورجل درس الآداب الأجنبية أو واحداً منها دراسة عميقة ، وعرف مناهج البحث ، ومذاهب النقد ، وأحسن نقلها إلى الأدب العربي ، ولكنه عجز عن فهم الشعر العربي ، و جهل علوم العربية ، ففد لا يستطيع إدراك معنى النص العربي فضلاً عن نقده أو الحكم عليه

ثم إن أكثر المدرسين من غير رجال الأدب ؛ وإن فهم من لم يعرفه الناس شاعراً مطبوعاً ، ولا كاتباً مجيداً ، ولا ناقداً بصيراً ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل . فكيف لعمري نطلب منه غرس الملكة الأدبية في نفوس الطلاب ؟ إن مثل هذا الطالب هدم للمنطق الذي يقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه

\*\*\*

هذه قيمة الحياة الأدبية في الشام ؛ وهذا موطن الضعف فيها ؛ فلا صلاح لها إلا بتقويتها ، ولا نجاح لأمة لا تسخر أديها لخدمة قضيتها . فهل يبدأ في حياتنا الأدبية « عهد الإصلاح » المنتظر ؟  
هي الطنطاري

(١) مقدمة ابن خلدون - طبعة القاهرة ص ٤٠٨

(٢) مقدمة ص ٤١٠

(٣) J. Lande : Vocabulaire de la philosophie - P. 496. Paris 1932

(٤) Bergson : Les deux Sources de la morale etc ... - Paris 1912